

التوبة إلى الله

معناها. حقيقتها. فضلها. شروطها

بقلم فضيلة الشيخ

أ. س. صالح بن محمد السدحان

كلية الشريعة بالرياض

جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

ح دار بلنسية للنشر والتوزيع، ١٤١٦هـ
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر.

السدلان، صالح بن غانم

التوبة إلى الله. - ط٤.

٨٠ ص، ١٤ × ٢١ سم

ردمك ٩٩٦٠-٧٤٣-٣٢-٢

١ - التوبة (الإسلام)

أ - العنوان

١٦/٠٥١٠

ديوي ٢٤٠

رقم الإيداع ١٦/٠٥١٠

ردمك: ٩٩٦٠-٧٤٣-٣٢-٢



الحقوق جميعها محفوظة للمؤلف - الطبعة الرابعة ١٤١٦هـ

دار بلنسية للنشر والتوزيع - المملكة العربية السعودية - الرياض
ص.ب ٥٧٢٤٢ - الرمز البريدي ١١٥٧٤ - هاتف وفاكس: (٠١)٤٨٢١٧٧٦



مقدمة الطبعة الرابعة

الحمدُ لله ربِّ العالمين، والعاقبة للمتقين، ولا عدوانٌ إلا على الظالمين.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، وسيد الأنبياء والمرسلين. أما بعد: فإنَّ رسالة «التوبة إلى الله» التي ألفتها عام ١٤٠٦هـ. قد يسَّرَ الله نفعها وقبولها فكانت محل قبول لدى قُرَّائِهَا، وطُبعت ثلاث مرات.

ولما نفذت الطبعة الثالثة أعدتُ النظر فيها لإعدادها للطبعة الرابعة، فأضفتُ بعض النصوص والأدلة من الكتاب والسنة، وبعض التعليقات المختصرة، وهاهي تقدم اليوم في طبعتها الرابعة.

أسأل الله أن ينفع بها كما نفع بسابقتها، وصلى الله على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه وسلم.

أ.د. صالح بن غانم السدلان

حرر في ٢٩/٣/١٤١٦هـ

بمدينة الرياض



المقدمة

الحمد لله، غافر الذنب، وقابل التوب، شديد العقاب، ذي الطول لا إله إلا هو إليه المصير.

والصلاة والسلام على رسول الله، معلّم الإنسانية، ومُرشدِها وهاديها إلى الحق، وإلى صراطٍ مستقيم. وعلى آله وأصحابه وأتباعه، وأحبابه إلى يوم الدين، وسلّم تسليمًا كثيرًا.

وبعد:

فإنّ الأمورَ إذا استحكمت وتعمّدت حبالها، وترادفت المعاصي وطال ليلها وانزلق المسلمُ إلى ذنب، وشعر بأنه باعد بينه وبين ربه، فإنّ الطهور الذي يعيد إليه نقاءً ويرُدُّ إليه ضيائه ويلقّه في ستار الغفران والرضا؛ أن يجنح إلى التوبة؛ لأنها النور الذي يُشعُّ للمسلم ليعصمه من التخبط، وهي الهداية الواقية من اليأس والقنوط، وهي ينبوع الفياض لكل خير وسعادة في هذه الدار وفي دار القرار.

وهي اسم جامعٌ لشرائع الإسلام وحقائق الإيمان، لأن المعاصي بمنزلة السُموم المهلكة وارتكاب الآثام سبيل

السقوط والإهانة، ومزلة إلى العقاب في الدنيا والآخرة، وهذا المخلوق البشري بحكم ما رُكّب فيه من ميول وغرائز تُسوّل له نفسه الأثارة بالسوء أحياناً إلى درك المعصية وتهيج به فورة اللحم والدم، فينزو نزوات الحيوان في حِمى الشهوة.

وليست التوبة في الإسلام مسلكاً وِعراً لا يصل إليها مبتغيها إلا بعد تعب ومشقة، أو اعتراف أمام أحد غير الله تعالى، بل إنها سهلة وميسرة، فبابها مفتوح في كل لحظة يطرقه من يشاء ليستغفر ويتطهر، لا يطرده من رحمة الله طارد، ولا يقوم بينه وبين ربه وسيط مهما أسرف على نفسه، قال الله - تعالى -: ﴿ قُلْ يَعْبادِي الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ [سورة الزمر، الآية: ٥٣].

فمن أراد الرجوع إلى الطريق المستقيم فلا عليه إلا أن يُبادر بالتوبة ويُقلع عن الذنوب من قَبْل أن يأتي يوم يُحَالُ فيه بينه وبينها، فيتحسّر على ما فرّط، ويضيق ذرعاً بما وصل إليه من واقع مرير، ويندم ولات ساعة مندم؛ فليشمر المسلم عن ساعد الجدِّ، وليتُب إلى الله بلسانه ويعزم بقلبه، محققاً مدلول التوبة بالإيمان والعمل

الصالح، علَّ اللهُ يُقْبَلُ عَثْرَتَهُ، وَيَقْبَلُ أَوْبَتَهُ، وَيَغْفِرُ ذَنْبَهُ؛
 فَيَأْخُذُ طَرِيقَهُ عَلَى هَدًى مِنَ الْإِيمَانِ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ،
 وَيُنَظِّمُهُ اللهُ فِي سَلْكِ عِبَادَةِ الْمُهْتَدِينَ، مُصَدِّقاً لِقَوْلِهِ
 - سبحانه -: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ
 اهْتَدَى﴾ [سورة طه، الآية: ٨٢].

اللهم إنا نسألك أن توفقنا للتوبة والإنابة، وأن تفتح
 لأدعيتنا أبواب الإجابة، وأن تذيقنا بَرْدَ عَفْوِكَ وَحَلَاوَةَ
 مَغْفِرَتِكَ يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ.

تعريف التوبة

التوبة لغة:

التَوْبَةُ: - بفتح التاء وسكون الواو - مأخوذةٌ من «تَوَبَّ» التاء والواء والباء كلمة واحدة تدلُّ على الرجوع، يقال تاب وأتاب إذا رجع عن ذنبه^(١).

والتوبة: هي الرجوعُ إلى الله، بِحَلِّ عُقْدَةِ الإصرار عن القلب، ثم القيام بكل حقوق الرَّبِّ - سبحانه وتعالى - .
والتَّوْبُ والتَّوْبَةُ معناهما واحد، والمراد: ترك الذنب على أجمل الوجوه، وهو أبلغ وجوه الاعتذار.

والتوبة في الشرع:

تَرْكُ الذنب مخافةَ الله؛ واستشعارُ قُبْحِهِ، وندَمٌ على المعصية من حيث هي معصية، والعزيمة على ألا يعود إليها إذا قدر عليها، وتدارك ما أمكنه أن يتدارك من الأعمال بالإعادة.

(١) «معجم مقاييس اللغة» لابن فارس، ج١/٣٥٧.

حقيقة التوبة

التوبة شعورٌ وجدانيٌّ بالندم على ما وقع، وتَوَجُّهُ إلى الله فيما بقي، وكَفْتُ عن الذنب، وعملٌ صالحٌ يحقق التوبة بالفعل، كما يحققها الكَفْتُ بالترك؛ فهي فعل وجوديٌّ يتضمن إقبال التائب على ربِّه وإنابته إليه، والتزام طاعته؛ فمن ترك الذنب تركاً مجرداً ولم يرجع منه إلى ما يحبه الله - تعالى - لم يكن تائباً.

إلا إذا رَجَعَ وأقبل وأناب إلى الله - عزوجل -، وحلَّ عُقْدَ الإصرار وأثبت معنى التوبة في الجَنَانِ قبل التلطف باللسان، وأدام الفكر فيما ذكره الله - تعالى - من تفاصيل الجَنَّةِ، ووَعَدَ به المطيعين، وما وصفه من عذاب النار وتَوَعَّدَ به العاصين، وواظب على ذلك حتى يَقْوَى خَوْفُهُ ورجاؤُهُ، فيدعو الله - تعالى - رَغْباً ورَهْباً أن يقبل توبته، ويغسل حَوْبَتَهُ، وَيَحُطُّ عنه خطاياها، وبهذا يكون قد حقق مدلول التوبة بالرجوع عما يكرهه الله إلى ما يحبه ويرضاه، بأن يتوب من الذنب ثم لا يعود إليه كما لا يعود اللبن إلى الضَّرْع، ويندم بقلبه ويستغفر بلسانه، وَيُمْسِكُ بيده.

ويتقي الله - تعالى - ويعمل بطاعته على نورٍ منه يرجو ثوابه
ويخاف عقابه، ويرغب إلى خالقه وفاطره أن يقي نفسه
شرّها، وأن يؤتيها تقواها ويزكيها فهو خير من زكاها، فإنه
ربها ومولاها، وألا يكله إلى نفسه طرفة عين.
«نعوذُ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا».

من معاني التوبة في القرآن الكريم

ورد لفظ التوبة في القرآن الكريم دالاً على معانٍ عدة منها:

١ - التوبة بمعنى الندم:

ومنه قوله - تعالى - : ﴿ فَتُوبُوا إِلَىٰ بَارِيكُمْ فَاقْنَلُوا أَنفُسَكُمْ ﴾

[سورة البقرة، الآية: ٥٤].

وقوله - تعالى - : ﴿ وَتُوبُوا إِلَىٰ اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ

لَعَلَّكُمْ تَفْلِحُونَ ﴾ [سورة النور، الآية: ٣١].

٢ - التوبة بمعنى التجاوز:

ومنه قوله - تعالى - : ﴿ لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَىٰ النَّبِيِّ

وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ ﴾ [سورة التوبة، الآية: ١١٧]، أي

تجاوز عنهم.

وقوله - تعالى - : ﴿ وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَىٰ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ﴾

[سورة الأحزاب، الآية: ٧٣].

٣ - التوبة بمعنى الرجوع عن الشيء:

ومنه قوله - تعالى - على لسان موسى - عليه السلام - :

﴿ سُبْحَانَكَ بِنْتُ إِلَيْكَ ﴾ [سورة الأعراف، الآية: ١٤٣]، أي

رجعتُ عن سُؤالي الرؤيَة.

فضل التوبة إلى الله

أمر الله - سبحانه - بالتوبة، فقال: ﴿ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا
إِيَّاهُ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تَقْلِحُونَ ﴾ [سورة النور، الآية: ٣١].
ووعده بالقبول عليها، فقال: ﴿ وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ
عِبَادِهِ ﴾ [سورة الشورى، الآية: ٢٥].

وفتح لعباده أبواب الرجاء في عفوه ومغفرته، وأمرهم
أن يلجأوا إلى سَاحَاتِ كَرَمِهِ وَجُودِهِ، طالبين تكفير
السيئات وَسَتْرَ العورات، وقبول توبتهم، لا يطردهم من
رحمة الله طارد، ولا يُوصِدُ بينهم وبين الله باب.

قال - تعالى -: ﴿ قُلْ يَاعِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا
تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَفُورُ
الرَّحِيمُ ﴾ [سورة الزمر، الآية: ٥٣].

فمن تاب واستغفر تاب الله عليه، قال - تعالى -:
﴿ وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا
لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرِ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ ﴾ [سورة آل عمران،
الآية: ١٥٣].

وقد أثنى الله على عباده المتقين المداومين على

الاستغفار، فقال - تعالى - : ﴿ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴾ ﴿١٦﴾ الصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْمُنْفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ ﴿١٧﴾ [سورة آل عمران، الآيات: ١٦، ١٧].

والتائب من ذنبه محلُّ رعاية الله وأهلُّ لحفظه ورحمته، يُغدقُ عليه من بركاته، ويُمَتَّعُهُ بِسِعَةِ الرِّزْقِ وورغد العيش في الدنيا، وينعم عليه بالثواب العظيم والنعيم المقيم في الآخرة. قال - تعالى - في ثواب التائبين إليه : ﴿ أُولَئِكَ جَزَاؤُهُمْ مَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ﴾ ﴿١٣٦﴾ [سورة آل عمران، الآية: ١٣٦].

ثم إنَّ الاستغفار مع الإقلاع عن الذنوب سبب للخصب والنماء، وكثرة النسل وزيادة العزَّة والمَنَعَة، قال تعالى : ﴿ فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٦﴾ يُرْسِلُ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا ﴿١٧﴾ وَيُمِدُّكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلُ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلُ لَكُمْ أَنْهَارًا ﴾ ﴿١٧﴾ [سورة نوح، الآيات: ١٠، ١١، ١٢].

ففي الإيمان رحمةٌ بالعباد، وفي الاستغفار بركات الدين والدنيا، وفي الحديث: الذي رواه ابن ماجه في سننه عن عبدالله بن عباس - رضي الله عنهما - قال قال رسول الله ﷺ : «من لَزِمَ الاستغفار جعلَ اللهُ لَهُ مِنْ كُلِّ هَمٍّ فَرَجًا، ومن كُلِّ

ضيقٍ مَحْرَجاً، وَرَزَقَهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ»^(١).

وباب التوبة مفتوح على مصراعيه تنسم منه نسمات الرحمة واللطف والنعم. قال - تعالى -: ﴿إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْئًا﴾ ﴿٦٠﴾ جَنَّتٍ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَنُ عِبَادَهُ بِالْعَيْبِ إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًا ﴿٦١﴾ [سورة مريم، الآيتان: ٦٠، ٦١].

فالتوبة التي تنشيء الإيمان والعمل الصالح، فتُحَقِّق مدلولها الإيجابي الواضح.. تُنْجِي من ذلك المصير فلا يلقى أصحابها ﴿عَيْبًا﴾، إنما يدخلون الجنة ولا يُظْلَمُونَ شيئاً.

فما أعظم بركات الاستغفار والإنابة إلى الله، بهما تُسْتَنْزَل الرَّحْمَات، وتُبارك الأرزاق، وتُكثَّر الخيرات، ويُعْطَى الله الأموال والبنين، ويغفر الذنب، ويمنح القوة والسداد والرشاد.

والله عفوٌ غفورٌ توابٌ، يقبل التوب ويغفر الذنب،

(١) «سنن ابن ماجه» ج-٢/١٢٥٤، رقم (٣٨١٩) ورواه أبو داود (١٥١٨) والإمام أحمد في «المسند» ١/٢٤٨ وفي سننه الحكم بن مصعب القرشي المخزومي: متكلمٌ فيه، لكن صححه العلامة أحمد شاكر (٢٢٣٤) حيث ترجم البخاري للحكم بن مصعب في «تاريخه الكبير» ولم يذكر فيه جرحاً فهو ثقة عنده.

ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل، ويبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار، فضلاً منه - سبحانه - وإحساناً، فينبغي للعاقل أن يشتغل بطاعة ربه ولا يغفل طرفة عين عن مراقبته والخوف منه، وأن يستحضر عَظَمَةَ الله دائماً، ويخشاه في السر والعلانية، فعلمه محيط، وغضبه شديد، يملأ قلوب الخائفين من غضبه أمناً، ويعوض النادمين الآسفين على ما كان منهم بمحو السيئات، وغُفْرَانِ الذنوب وقبول التوبة ورفع الدرجات.

اللهم يا مَنْ يملك حوائج السائلين؛ ويعلم ضمائر الصامتين؛ هَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ تَوْبَةً صَادِقَةً؛ وَإِنَابَةً كَامِلَةً؛ لَا يَشُوبُهَا تَرَدُّدٌ وَلَا يَعْتَرِيهَا نَقْصٌ أَوْ تَسْوِيفٌ.

* * *

وجوب التوبة على الفور

إذا كان عموم الناس محتاجين إلى التوبة، فإنه لا بد وأن يكونوا مشتغلين بها في كل حين وأن، وقد دلت النصوص المتضافرة على أن المبادرة بالتوبة من الذنب فرضٌ على الفور، ولا يجوز تأخيرها، وأن التوبة عند المعاينة لا تنفع؛ لأنها والحالة هذه تصبح توبةً ضرورةً لا اختياراً.

لهذا كان قبول التوبة حقاً على الله للذين يعملون السوء بجهالة ثم يتوبون من قريب، قبل أن تنقطع الآمال وتحضر الآجال، وتساق الأرواح سواقاً، ويغلب المرء على نفسه. قال - تعالى -:

﴿ إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ فَأُولَٰئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧﴾ وَكَانَتْ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّىٰ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي بُنْتُ الْقَنَ وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَٰئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٨﴾ [سورة النساء، الآيتان: ١٧، ١٨].

فمتى تاب العبد إلى الله نادماً على ما فعل جاداً عازماً باذراً بذور التقوى والعمل الصالح راجياً رحمة ربه، قبل الله توبته، لا يتركه منبوذاً حائراً، ولا يدعه مطروداً خائفاً،

بل يَدُلُّهُ عَلَى الطَّرِيق وَيَأْخُذُ بِيَدِهِ، وَيَسْنُدُ خَطْوَاتِهِ، وَيُنِيرُ لَهُ الطَّرِيقَ، وَلَا عَلَى الْعَبْدِ حَيْثُ دَسَى:

١ - أَنْ يُعَجَّلَ بِالتَّوْبَةِ: حَتَّى لَا تَصِيرَ الْمَعَاصِي رَانًا وَطَبْعًا لَا يَقْبَلُ الْمَحْو.

٢ - أَنْ يَعَجِّلَهَا قَبْلَ الْمَوْتِ أَوْ الْمَرَضِ: وَلِيَحْذَرَ الْمَغْرُورُونَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ وَيُصِرُّونَ عَلَى الْمَعَاصِي وَيُسَوِّقُونَ فِي التَّوْبَةِ، حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ: إِنِّي تُبِّتُ الْآنَ، وَقَدْ رَسَخَتِ الْمَعَاصِي فِي قَلْبِهِ، وَأَنْسَتْ بِهَا نَفْسَهُ، حَتَّى صَارَتْ مَلَكَاتٍ وَعَادَاتٍ يَتَعَدَّرُ أَوْ يَتَعَسَّرُ عَلَيْهِ الْإِقْلَاعُ عَنْهَا، حَتَّى إِذَا جَاءَهُ الْأَجْلُ الْمَوْعُودُ، فَاضْطُرَّ إِلَى التَّوْبَةِ بَعْدَ أَنْ لَجَّتْ بِهِ الْغَوَايَةُ، وَأَحَاطَتْ بِهِ الْخَطِيئَةُ، فَهُوَ لَمْ يَتَبْ إِلَّا حِينَ عَايَنَ الْعَذَابَ وَحَضَرَ الْأَجْلَ، وَلَمْ يَعِدْ هُنَاكَ مَتَسَعٍ لَارْتِكَابِ الذُّنُوبِ.

فَهَذِهِ التَّوْبَةُ غَيْرُ صَاحِحَةٍ بَلْ هِيَ مُرَدُودَةٌ لِأَنَّهَا لَا تُنْشِئُ صِلَاحًا فِي الْقَلْبِ وَلَا اسْتِقَامَةً فِي الْحَيَاةِ، ذَلِكَ لِأَنَّهَا تَوْبَةٌ اضْطِرَّارٌ لَا اخْتِيَارٍ؛ فَهِيَ كَالتَّوْبَةِ بَعْدَ طُلُوعِ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا، وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَعِنْدَ مَعَايِنَةِ بَأْسِ اللَّهِ - تَعَالَى -.

فَلْيَبَادِرِ الْمُؤْمِنُ بِالتَّوْبَةِ إِلَى اللَّهِ قَبْلَ أَنْ يَحْضُرَ الْأَجْلَ، وَيَنْقَطِعَ الْأَمَلُ، فَيَنْدِمُ وَلَاتِ سَاعَةٌ مِنْدِمٍ. وَفَقَّ اللَّهُ الْجَمِيعَ لِمَا يَجِبُهُ وَيَرْضَاهُ.

تأخير التوبة ذنب تجب التوبة منه

إنَّ العبد إذا عمل المعصية وخطرت بباله التوبة فإنه ينبغي عليه أن يسارع إلى ذلك ولا يركن إلى التسويف والأمانى، فإنه لا يدري متى تنقضي أيامه وتنقطع أنفاسه وتنصرم لياليه.

وقد دعا القرآن الكريم إلى الاعتراف بالذنب والمبادرة بالتوبة، قال الله - تعالى - : ﴿ إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ فَأُولَٰئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ [سورة النساء، الآية: ١٧].

فقبول هذه التوبة حقٌّ للذين يعملون السوء بجهالة ثم يتوبون من قريب، إنه حق كتبه الله على نفسه رحمةً منه وفضلاً. وكل من عصى الله خطأً أو عمداً فهو جاهل حتى ينزع عن الذنب^(١).

فالمبادرة إلى التوبة من الذنب فرضٌ على الفور ولا يجوز تأخيرها، فإنَّ أَخْرَهَا وجب عليه أن يتوب، وتعد هذه توبة من تأخير التوبة.

(١) انظر «تفسير ابن كثير» سورة النساء، الآية: ١٧.

شروط التوبة

التوبة إلى الله - تعالى - من أعظم الحسنات، لأنها تُزيل العوائق التي تقوم بين العبد وبين ربه: تلك العوائق الكامنة في النفس من شهواتها ونزواتها، فالتوبة تملأ النفس بالأمل، وتقود القلب إلى مصدر النور. ولن تكون التوبة صحيحة مقبولة حتى تتحقق فيها شروط تثبت صدق التائب في توبته.

من هذه الشروط:

أولاً: أن تكون خالصة لله - عزوجل - لأن الله - سبحانه - لا يقبل من الأعمال إلا ما كان خالصاً له وحده مبتغى به وجهه، وموافقاً أمره باتباع رسوله ﷺ، فلا بد أن يكون العمل خالصاً إلى الله - تعالى - صواباً، أي موافقاً للسنة، إذ قد يكون العمل صواباً ولا يكون خالصاً، فلا يقبل، وقد يكون خالصاً ولا يكون صواباً فلا يقبل - أيضاً - وكان من دعاء عمر - رضي الله عنه -: «اللهم اجعل عملي كله صالحاً، واجعله لوجهك خالصاً، ولا تجعل لأحد فيه شيئاً».

فيكون الباعث للتوبة حُبُّ الله وتعظيمه ورجاؤه، والطمعُ في ثوابه، والخوفُ من عقابه، لا تزُلْفاً إلى مخلوقٍ، ولا قصداً في عَرَضٍ من عرض الدنيا الزائل.

ثانياً: الإقلاع عن المعصية: لأن النفس المشغولة بلذة المعصية قلماً تُخْلِص عمل الخير؛ فيجاهد التائب نفسه لاقتلاع جذور الشر من قلبه، حتى يصبح نقياً خالصاً صافياً، تصدرُّ عنه أعمال الخير بنية صالحة مقبولة عند الله، فإن كانت المعصية بفعل مُحَرَّم تركه في الحال، وإن كانت بترك واجب فعله في الحال - إن كان مما يمكن قضاؤه - وإن كانت مما يتعلق بحقوق الخلق تخلص منها وأداها إلى أهلها أو استحلَّهم منها، وسيأتي بيان ذلك إن شاء الله.

ثالثاً: الندم على ما سلف منه في الماضي، والإقلاع عنه في الحال والعزم على ألا يعاود الذنب في المستقبل، فلن تكون التوبة صحيحة حتى يكون نادماً أسفاً حزيناً على ما بدر منه من المعاصي، ندماً يوجب الانكسار بين يدي الله - عزوجل - والإنابة إليه. ومن هنا فلا يُعَدُّ تائباً ونادماً ذلك الذي يتحدث بمعاصيه السابقة التي قارفها يفتخر بذلك ويتباهى به، بل هذا من المجاهرة التي قال

عنها رسول الله ﷺ: «كلُّ أمتي مُعافى إلا المجاهرون»^(١).

رابعاً: العزم الجازم على عدم معاودة الذنب: فيتوب من الذنب وهو يُحَدِّث نفسه ألا يعود في المستقبل، والقصد لتدارك ما فات وإصلاح ما يأتي، ودوام الطاعة ودوام ترك المعصية إلى الموت، والعزم الجازم - أيضاً - على فعل المأمور، وترك المحذور، والتزام ذلك طيلة حياته.

وإذا وصل العبد إلى هذه الدرجة من العزم الجازم فلا يضر توبته لله مرةً أخرى إن ندم وأسف وسارع إلى التوبة. قال ﷺ: «أذنبَ عبدٌ ذنباً فقال: اللهم اغفر لي ذنبي. فقال تبارك وتعالى: أذنب عبدي، فعلم أن له رباً يغفر الذنب ويأخذ بالذنب، ثم عاد فأذنب فقال: أي رب اغفر لي ذنبي، فقال تبارك وتعالى: عبدي أذنب ذنباً فعلم أن له رباً يغفر الذنب ويأخذ بالذنب، ثم عاد فأذنب فقال: أي رب اغفر لي ذنبي، فقال تبارك وتعالى: أذنب عبدي ذنباً فعلم أن له رباً يغفر الذنب ويأخذ بالذنب، اعمل ما شئت فقد

(١) رواه البخاري (٦٠٦٩) ومسلم (٢٩٩٠).

والمجاهرون: هم الذين جاهروا بمعاصيهم وأظهروها وكشفوا ما ستر الله عليهم فيتحدثون بها لغير ضرورة ولا حاجة. انظر: «شرح صحيح مسلم» ١١٩/١٨ للنووي.

غفرتُ لك»^(١). ومعنى قوله فقد غفرت لك أي مادُمتُ تذنب ثم تتوب، غفرت لك.

خامساً: عدم الإصرار على المعصية:

والإصرار: هو عقد القلب على شهوة الذنب، والاستقرار على المخالفة، والعزم على المعاودة، لأن التوبة مع الإصرار توبة الكذابين: الذين يهجرون الذنوب هجراً مؤقتاً، يَتَحَيَّنُونَ فِيهَا الْفُرْصَ الْمَوَاتِيَةَ لمعاودة الذنب، وقد بقيت حلاوته في قلوبهم، يتمنون مقارفته ما وجدوا السبيل إليه، وقد شرط الله لوجوب المغفرة ودخول الجنة عدم الإصرار على فعل الفاحشة أو ظلم النفس، قال - تعالى -: ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٢٥﴾ أُولَٰئِكَ جَزَاؤُهُمْ مَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَيَعْمَرُونَ فِيهَا الْعَمِلِينَ ﴿١٢٦﴾ ﴾ [سورة آل عمران، الآيتان: ١٣٥، ١٣٦].

سادساً: أن التوبة كما تكون بالقلب واللسان تكون أيضاً

(١) رواه البخاري (٧٥٠٧) ومسلم (٢٧٥٨). وانظر لشرحه «فتح الباري» ٤٧١/١٣.

بالعمل الصالح الذي يكون ترجمة عملية لما في قلب الإنسان، إذ العمل الصالح ينشيء التعويض الإيجابي في النفس للإقلاع عن المعصية؛ فيعوض التائب ما صرفه من عمره في اللهو والمعصية بالعمل الصالح وفعل الطاعات، ليمحق بذلك أثر الخطيئة والسيئات، فإذا تاب وأقلع عن الذنب فينبغي أن يصدق توبته تعويض ما فاته بأعمال صالحة، لا يرجى فلاحه، فليؤد التائب الفرائض وجميع شعب الإيمان البضع والسبعين قدر المستطاع.

سابعاً: أن يستمر التائب في توبته ولا يأتي بما ينقضها ويخالفها، إذ الاستمرار في التوبة شرط في صحة كمالها ونفعها. ولهذه المسألة مزيد بيان سيأتي إن شاء الله.

ثامناً: من شروط التوبة أن تصدر في زمن قبولها. وهو ما قبل حضور الأجل، وطلوع الشمس من مغربها، وسيأتي بيان وقت التوبة ونهاية وقتها إن شاء الله.

بهذا يتضح أن التوبة كلُّ متكاملٌ يفقد خصائصه كُلَّها حين يفقد أحد أجزائه، كالمركب يفقد خواصه كلها إذا فقد أحد عناصره، فمن أتى بشرطٍ وأغفل آخره؛ لا يُعْتَدُ بتوبته ما لم يحقق بقية الشروط... والله المستعان.

وقت التوبة ونهاية وقتها

التوبة مقامٌ ينبغي أن يستصحبه العبد من أول ما يدخل فيه إلى آخر عمره، وعموم الناس محتاجون إلى التوبة دائماً، وعلى الخلق جميعاً أن يتوبوا وأن يستديموا التوبة، قال الله - تعالى -: ﴿ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [سورة النور، الآية: ٣١].

والأمر عند إطلاقه يستلزم الوجوب. فالتوبة واجبة وجوباً مطلقاً مدى العمر. ووقتها مُدَّةُ العمر. وهي غاية كل مؤمن، وقد قال الله لأفضل الأنبياء ﷺ، ولأفضل الخلق بعد الأنبياء: ﴿ لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبَ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [سورة التوبة، الآية: ١١٧].

والعبد محتاجٌ إلى التوبة والاستغفار مطلقاً في كل وقت وحين؛ فإذا كان النبي ﷺ، قد أُمر أن يختم أعماله بالتوبة والاستغفار في قوله - تعالى -: ﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ﴾ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ﴿٢﴾

فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَأَسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ﴿٢﴾ .

فغيرُ النبي ﷺ، أحوَجُ إلى هذا منه، فليجمع العبد هِمَّتَهُ وعزمه، وليحاسب نفسه، وليُتَبِّ إلى الله حتى الممات .

وما من عبدٍ إلا وقد اقترف ذنباً وفعل إثماً . «وكلُّ بني آدم خطاءٌ»^(١)، فقد أقسم إبليس بعزة الله - تعالى - أنه لا يفارق ابن آدم بالغاوية والإضلال مادام روحه في جسده .

وعن أبي سعيد - رضي الله عنه - عن النبي ﷺ قال :
«قال إبليس : يارب وعزَّتكَ لأزال أغويهم مادامت أرواحهم في أجسادهم، فقال الله - عزوجل - : وعزتي وجلالي، لأزال أغفر لهم ما استغفروني»^(٢) .

فباب التوبة مفتوح يثوب إليه الشاردون، فيستردون أنفسهم من تيه الضلال؛ ويعملون عملاً صالحاً إن قُدِّر لهم امتداد في العمر، قبل أن يأتي يوم لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل، أو كسبت في إيمانها خيراً .

فمتى وقع الإيأس من الحياة، وعانين مَلَكَ الموت، وحشرجت الروح في الحلق، وضاق بها الصدر، وبلَّغَتْ

(١) رواه الترمذي (٢٥٠١) وابن ماجه (٤٢٥١) وأحمد في «المسند»

١٩٨/٣ والدارمي في «سننه» ٣٠٣/٢ وسنده حسن .

(٢) رواه الإمام أحمد في المسند .

الحلقوم، وغرغرت النفس في الحلق فلا توبة. ويبدأ وقت التوبة عندما يستشعر القلب جلالَ ربه وعظمة خالقه، فيعلن التوبة بالرجوع إلى الله - تعالى - بسلك صراطه المستقيم الذي نصبه لعباده موصلاً إلى رضوانه، وأمرهم بسلكه بقوله - تعالى -: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ [سورة الأنعام، الآية: ١٥٣].

فيتوب قبل أن يتبين له الموت أو المرض وينشئ بتوبته صلاحاً في القلب، وصلاحاً في الحياة مادام مكلفاً؛ فالرجاء حينئذ باق ويصح منه الندم والعزم على ترك الفعل، وهذا هو المقصود بقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [سورة النساء، الآية: ١٧].

أي الذين يرتكبون الذنوب ويضلون طريق الهدى عن جهالة، طال أمد ذلك أم قصر، مادامت تلکم الجهالة لا تستمر حتى تبلغ الروح الحلقوم، إذا فهي موافقة لمحلها. قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ يَقْبَلُ تَوْبَةَ الْعَبْدِ مَا لَمْ يُغْرِغْ»^(١). ومع سعة رحمة الله - تعالى - وشمول عفوه وقبول توبة

(١) رواه الترمذي (٣٥٣١) عن ابن عمر وحسنه، ورواه غيره.

النائب تفضلاً منه ومئة في كل وقت وحين إلا أنه سبحانه
حَجَبَ باب التوبة عن الذين يعملون السيئات حتى إذا
حضر أحدهم الموت قال إني تبت الآن. . فهذا الصنف من
الناس ليس داخلاً في حُكم التائبين المقبولين، لأنه يَتَدَسُّ
بالمعاصي وَيَلْجُ في الغواية حتى إذا عاين الموت وصار في
حين اليأس أنشأ توبةً بعد أن أحاطت به الخطيئة، وانقطعت
عنه أسباب النجاة فأثى له ذلك. . !؟

فلا يجوز تضييع الوقت بالاشتغال بالمعصية أو اللغو أو
الإعراض عن واجب أو فرض.

عن صفوان بن عَسَّال قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ مِنْ
قَبْلِ مَغْرِبِ الشَّمْسِ بَاباً مَفْتُوحاً، عَرَضُهُ سَبْعُونَ سَنَةً فَلَا يَزَالُ
ذَلِكَ الْبَابُ مَفْتُوحاً لِلتَّوْبَةِ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ نَحْوِهِ، فَإِذَا
طَلَعَتْ مِنْ نَحْوِهِ، لَمْ يَنْفَعْ نَفْساً إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ
قَبْلِ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْراً»^(١).

وعن عبدالله بن عمرو - رضي الله عنهما - عن النبي
ﷺ، قال: «إِنَّ اللَّهَ - عَزَّ وَجَلَّ - لِيَقْبَلَ تَوْبَةَ الْعَبْدِ مَا لَمْ
يَغْرُغْ»^(٢).

(١) رواه ابن ماجه (٤٠٧٠) في الفتن باب طلوع الشمس من مغربها.

(٢) رواه الترمذي (٣٥٣١)، وابن ماجه (٤٢٥٣)، والحاكم في «المستدرک» =

وقال ابن هبيرة: «النفس المؤمنة إن لم تكسب في إيمانها خيراً حتى طلعت الشمس من مغربها لم ينفعها ما تكسبه».

فالبدار البدار إلى التوبة قبل الفوات. والحذر الحذر من فعل السيئات قبل أن يقول المذنب: ﴿رَبِّ ارْجِعُونِ﴾ لَعَلِّيَ أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٠٠﴾ [سورة المؤمنون، الآيتان: ٩٩، ١٠٠].

اللهم وفقنا للتوبة والاستعداد للموت وما يأتي بعده..
أمين.

إمكان التوبة من جميع الذنوب

مَنْ عَرَفَ حَقِيقَةَ النَّفْسِ وَمَا طُبِعَتْ عَلَيْهِ عَلِمَ عَلِمَ الْبَاقِينَ
 أَنْ فِيهَا دَاعِيَانِ، دَاعٍ لِلْخَيْرِ وَدَاعٍ لِلشَّرِّ، فَإِنْ أَخَذَ بِدَاعِيِ
 الْخَيْرِ نَجَا وَسَعِدَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَإِنْ أَخَذَ بِدَاعِيِ الشَّرِّ
 كَانَتْ هَذِهِ النَّفْسُ مَبْعُوعَةً لِكُلِّ شَرٍّ وَمَأْوَى لِكُلِّ سُوءٍ، تَوْرَدُ
 الْعَبْدَ مَوَارِدَ الْهَلَاكَةِ وَتَلْجُ بِهِ فِي مَزَالِقِ الشَّرِّ وَالْخَسْرَانِ.

وَمَنْ سُنِنَ اللَّهُ الثَّابِتَةَ فِي خَلْقِهِ أَنْ مِنْ سَلَكِ طَرِيقَهُ وَاتَّبَعَ
 دِينَهُ فَقَدْ فَازَ وَنَجَا وَسَادَ وَقَادَ. . وَمَنْ تَرَكَ هِدَايَةَ اللَّهِ وَاسْتَدْبَرَ
 طَرِيقَهُ وَجَانِبَ شَرْعِهِ وَسَلَكِ طَرِيقَ الشَّيْطَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ
 وَهَلَكَ وَضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا، وَمَنْ ثَمَّ كَانَ الشَّرْكَ بِاللَّهِ مِنْ أَعْظَمِ
 الذَّنُوبِ وَأَقْبَحِهَا، وَحَسِبُ مِنْ اتَّصَفَ بِهِ أَنَّهُ مَطْرُودٌ مُبْعَدٌ مِنْ
 رَحْمَةِ اللَّهِ؛ الْجَنَّةُ عَلَيْهِ حَرَامٌ، وَالنَّارُ مَأْوَاهُ وَمِهْوَاهُ، قَالَ
 - تَعَالَى -: ﴿ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ
 النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ ﴾ [سورة المائدة، الآية: ٢٧].

وَمَعَ هَذَا فَالتَّوْبَةُ مِنْهُ مِمكِنَةٌ، قَالَ - تَعَالَى -: ﴿ قُلْ لِلَّذِينَ
 كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ ﴾ [سورة الأنفال،

فباب التوبة مفتوح دائماً، يدخل منه كل من استيقظ ضميره، وثاب إلى حمى الله، ولاذ به بعد الشرود والمتهاة وأراد العودة والمآب.

والذنوب التي دون الشرك قسمان:

القسم الأول: ذنوب تتعلق بحق الله - تعالى - .

القسم الثاني: ذنوب تتعلق بحقوق الأدميين.

والقسم الأول نوعان:

النوع الأول: أن يكون الذنب بترك واجب يمكن استدراكه، كالصلوات، والصيام، والحج، فلا بد في هذه الحقوق من التوبة مع القضاء، حيث قَدَرَ على ذلك وأمكنه، وفي بعض الذنوب التوبة مع الكفارة؛ كالحِنْثِ في الأيمان، والظُّهار وغير ذلك.

النوع الثاني: أن تكون بسبب جهلٍ وعدم معرفة الله كما ينبغي، وتحليل ما أحله، وتحريم ما حرمه، ونحو ذلك، فهذا النوع تجزيء فيه التوبة فقط، ثم إن كان الذنب مما يوجب الكفر فلا بد من الإتيان بالشهادتين، وإثبات ما أنكر، وإنكار ما كان قد اعتقد مما يوجب الكفر.

وإن كان بسبب جهل أو إعراض فلا بد فيه أن يطلب العلم ويتعلم من أمر دينه ما يعصمه ويحصنه من الوقوع

في الذنب مرة أخرى .

القسم الثاني :

أن تكون الذنوب بسبب حق يتعلق بأدمي .

وهي نوعان أيضاً :

النوع الأول : أن يجبر الحق بمثله من الأموال والجراحات ، وقِيم المُتْلَفَات والسرقَات والغصبَات . إلخ .
فلا بد في هذا النوع من رَدِّ كُلِّ مَظْلَمَةٍ لأهلها ، ورَدِّ كل حق لمستحقه من مال ونحوه - إن كان موجوداً - أو رَدِّ مثله إن كان معدوماً أو مستهلكاً ، لأنه مَحْضُ حَقٍّ فيجب أدائه إلى صاحبه ، فإن لم يوجد أهلها تصدق بها عنهم ، وتمكين ذي القصاص منه على الوجه المشروع ، فإن لم يفعل بردَّ المظالم إلى أهلها ، واقتصر على التوبة فقط وندم وأقلع وعزم ألا يعود ، فقد تصح توبته فيما بينه وبين الله ، وتبقى في ذمته مظلمة الأدمي ، ومطالبته على حالها ، ومن لم يجد السبيل لإخراج ما عليه لإعسارِ فعفو الله مأمول .
وفضله مبذول ، فكم ضمن من التبعات ، وبدل من السيئات !!

النوع الثاني : أن لا يجبر الحق بمثله ، بل جزاؤه من غير جنسه ، كالقذف فحدُّه الجلد ، والزنا - إذا ثبت - فحدّه

الرجم أو الجلد.

وأما الغيبة والنميمة ففاعلهما مذنب ومستحق للعذاب إن لم يستحل من اغتابه^(١)، واقرار مثل هذه الذنوب مادامت مستورة بين العبد وبين ربه لم يطلع عليها أحد، تكون توبته بالندم عليها والإقلاع عن فعلها وكثرة الاستغفار للمغتاب ونحوه، وإكذاب نفسه مما قذف به، وكثرة الإحسان لمن أفسد عليه زوجته وزنى بها، فيدعو الله لصاحب الحق ويستغفر له، ويذكر المغتاب والمقذوف في مواضع غيبته وقذفه بضد ما ذكره به من الغيبة؛ فيبدل غيبته بمدحه والثناء عليه، وذكر محاسنه، ويبدل قذفه بذكر عفته وإحصانه، ويستغفر له بقدر ما اغتاب به. والله أعلم

(١) المشروع للتائب من الغيبة والنميمة أن يستحلَّ ممن اغتابه أو نمَّ عليه، فإذا لم يمكنه ذلك أو ترتب عليه مفسده، فإنه يستغفر ويدعو له، ويذكره بالخير في المواضع التي اغتابه، أو نمَّ عليه فيها.

التوبة من ترك الحسنات

يظن بعض الناس أن التوبة لا تكون إلا من العصاة ومرتكبي الذنوب والخطايا، وهذا ظنٌ في غير محله، فإن التوبة تكون - أيضاً - ممن ترك الحسنات ولم يستزد من الطاعات، وقد نص بعض أهل العلم على أن العبد إذا ترك فعل المستحبات رغبة عنها فقد باشر أمراً مكروهاً.

سُئل شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - عن من لا يواظب على السنن الرواتب، فأجاب: «من أصرَّ على تركها، دلَّ ذلك على قلة دينه، ورُدَّتْ شهادته في مذهب أحمد والشافعي، وغيرهما»^(١).

وصدق - رحمه الله - فيما قال، فإنك تجد من يُقِلُّ من فعل السنن أقرب ما يكون إلى مواقعة المحرمات، بخلاف من حافظ على السنن والطاعات المستحبات فإنها تكون حاجزاً بينه وبين مواقعة المحرمات، فينبغي على المسلم أن يتوب من ترك الحسنات أو التقصير فيها أو التغافل عنها ويُقبل على الحسنات ويكثر منها كلما تيسرت له ووجد أسبابها.

(١) «مجموع الفتاوى» ١٢٧/٢٣.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله -:

«وليست التوبة من فعل السيئات فقط، كما يظن كثير من الجهّال، لا يتصورون التوبة إلا عمّا يفعله العبد من القبائح كالفواحش والمظالم، بل التوبة من ترك الحسنات المأمور بها، أهم من التوبة من فعل السيئات المنهي عنها، فأكثر الخلق يتركون كثيراً مما أمرهم الله به من أقوال القلوب وأعمالها، وأقوال البدن وأعماله، وقد لا يعلمون أن ذلك مما أمروا به، أو يعلمون الحق ولا يتبعونه، فيكونون إمّا ضالين بعدم العلم النافع، وإمّا مغضوباً عليهم بمعاندة الحق بعد معرفته.

وقد أمر الله عباده المؤمنين أن يدعوه في كل صلاة بقوله: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ ﴿٦﴾ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ﴿٧﴾ ﴿١﴾

[سورة الفاتحة، الآيتان: ٦ - ٧]. اهـ (١).

بل إن الأمر أبعد من ذلك وهي منزلة لا يبلغها إلا الخُلُصُّ من المؤمنين، وهي توبة المرء من تقصيره في الحسنات بعد أن يعملها وخوفه أن لا يكون قد أتى بها على الوجه المطلوب. ولذا صح عن عائشة - رضي الله

عنها - أنها لما قرأت قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَاءً آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ
وَجِلَّةٌ﴾ [سورة المؤمنون، الآية: ٦٠]، قالت: أهو الذي يزني
ويشرب الخمر ويسرق؟ فقال ﷺ: «لا يا بنت الصديق،
ولكنه الرجل يصوم ويصلي ويتصدق ويخاف ألا يُقبل
منه»^(١).

«وهذا منهم من باب الإشفاق والاحتياط، أنهم خائفون
وَجِلُونَ ألا يتقبل منهم لخوفهم أن يكونوا قد قصروا في
القيام بشروط الإعطاء»^(٢).

ولذا قال الحسن البصري - رحمه الله -: «إن المؤمن
جمع إحساناً وشفقة»^(٣).

(١) رواه الإمام أحمد ٦/١٥٩، ٢٠٥، والترمذي (٣١٧٥) في التفسير: باب
ومن سورة المؤمنين، وابن ماجه (٤١٩٨) في الزهد: باب التوقي على
العمل. وفي سنده ضعف لانقطاعه بين عبدالرحمن بن وهب الهمداني
الراوي عن عائشة وبينها لأنه لم يدركها لكن له شاهد يتقوى به من
حديث أبي هريرة عن عائشة عند ابن جرير في «تفسيره» ٣٣/١٨. ولذا
صححه الحاكم في «المستدرک» ٢/٣٩٤ ووافقه الذهبي، وكذا العلامة
الألباني في «الأحاديث الصحيحة» رقم (١٦٢).

(٢) انظر «تفسير ابن كثير» ٣/٢٤٨ ط دار الدعوة بتركيا.

(٣) انظر «تفسير ابن جرير» ٣٢/١٨.

الذنوب والمعاصي التي تجب التوبة منها

إن الإسلام يعتمد في إصلاحه العام على تهذيب النفس الإنسانية قبل كل شيء، فهو يُكرِّس جهوداً ضخمة للتغلغل في أعماقها وغرس توجيهاته في جوهرها، والعوامل المسلطة على الإنسان من داخل كيانه ومن خارجه كثيرة، فالنفس أمارةٌ بالسوء، والشيطان يقعد للإنسان كل مرَّصِدٍ، ويقطع عليه كل طريق فيه فلاحه وسعادته.

وبحكم ما رُكِّب في الإنسان من غرائز وميول وشهوات، سرعان ما ينحرف عن التوازن السليم، ويقع في المعصية، ويسرف في الذنب، ثم إنَّ دواعي الطبع وإرادات النفس وشهواتها المنحرفة مصدرها: إما جهلٌ وإما ضعف، إذ لا يصدر الذنب، إلا عن جهل بآثاره وموجباته، أو يكون عالماً بذلك لكن فيه ضعف وعَجْزٌ يمنعه عن محوه من قلبه بالكلية، ولا شيء يمسح صدى النفس ويغسلها من أدرانها ويعيدها إلى نقائها وصفائها أفضل من التوبة إلى الله، والعودة إلى أفياء الطاعة وظلال الاستسلام. ﴿وَمَنْ يَعْتَصِمْ بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [سورة آل عمران، الآية: ١٠١].

ولا يسمى العبد تائباً ما لم يتخلّص من جميع أجناس المُحَرَّمات وأصناف الذنوب، ويتحصّن ويتحرّز من موانعها، ومنها:

أولاً: الشرك بالله، وهو أعظم الذنوب:

وهو أن يتخذ من دون الله نداً يحبه كما يحب الله تعالى، فيدعوه ويستعين به، ولا يُغفر الشرك إلا بالتوبة منه، وتجريد التوحيد لله تعالى، سواء منه الأكبر أو الأصغر كيسير الرياء، والتّصّع للخلق، والحلف بغير الله -تعالى-، وكقول الرجل للرجل: ما لي إلا الله وأنت، وتوكلتُ على الله وعليك.

فعلى التائب تجريد التوحيد لله، ومعاداة المشركين في الله، والتقرب إلى الله بمقتهم، واتخاذ الله وحده ولياً وإلهاً ومعبوداً وناصرأً ووكيلاً، وحافظاً ومستعاناً، وإخلاص القصد لله، متبعاً لأمره، مجتنباً لنواهيه، طالباً لمرضاته.

ثانياً: الكفر:

ذنبٌ عظيمٌ وجُرمٌ كبيرٌ بسببه تُحبط الأعمال، ويُخلدُ مرتكبه في أعظم العذاب وأشد العقاب. وأنواعه مُفصّلةٌ مبيّنةٌ في غير هذا المقام.

ومع هذا فإن الله قد فتح باب التوبة لمن انتهى عن كفره

التوبة إلى الله

وعناده فأسلم وأتاب إليه، قال - تعالى -: ﴿ قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ وَإِنْ يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ الْأَوَّلِينَ ﴾ [سورة الأنفال، الآية: ٣٨].

الثالث: النفاق:

وهو الداء العُضال الباطن، الذي يكون الرجل ممتلئاً منه وهو لا يشعر، فإنه أمرٌ خَفِيٌّ على الناس، وكثيراً ما يخفى على من تلبس به، فيزعم أنه مصلح وهو مفسد، وهو من الأمراض الباطنة التي تَعْتَوِرُ المرء وتعتريه، وإذا لم يعالج صاحبه نفسه، ويُرْلُهُ بالتوبة لم يلق الله - تعالى - بقلب سليم - أعادنا الله من النفاق في القول والعمل - قال - تعالى -: ﴿ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ يَجْدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴾ [سورة النساء، الآية: ١٤٥].

ورحمة الله واسعة لا تضيق بالواردين. وفضله واسع يعم التائبين، فمن أراد أن يُنِيبَ إلى الله ويعتصم بالله ويتبرأ من النفاق وأهله فلا عليه إلا أن يُحَقِّقَ مدلول الآية: ﴿ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُولَئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ يُؤْتِي اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ [سورة النساء، الآية: ١٤٦].

فشرط في توبة المنافق الاعتصام بالله، للتخلص من تلك

المشاعر المذبذبة والأخلاق المتخلخلة، وإخلاص الدين لله وتجريده من شوائب الرياء. وبذا يرتفع التائب إلى مصاف المؤمنين. ﴿ وَسَوْفَ يُؤْتِي اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ [سورة النساء، الآية: ١٤٦].

رابعاً: التوبة من الفسوق:

وكل أنواع الفسوق تجب التوبة منها سواء كان فسوقاً في العمل مقروناً بالعصيان أو مقروناً بارتكاب ما نهى الله عنه وعصيان أمره. أو فسوقاً في الاعتقاد، كفسق أهل البدع والخرافات، وبتحقيق التقوى تصح التوبة: بأن يعمل العبد بطاعة الله على نور من الله، يرجو رحمته، ويخاف عقابه. ويهجر المعصية ويعتصم بالكتاب والسنة. ويعصي دواعي الطبع والشهوة ويقهرها بسلطان الطاعة والخوف من الله.

خامساً: التوبة من البدع:

والبدعة هي: «تلك الطرائق المخترعة التي ليس لها مستند من كتاب أو سنة أو ما استنبط منهما». وتوبة المبتدع تكون بأن يعلم أن ما هو عليه بدعة فيعترف بها ويرجع عنها، ويعتقد ضد ما كان يعتقد منها. أما إذا زُينَ له سوء عمله فرآه حسناً فلا توبة له مادام يرى ذلك حسناً. والتوبة من البدع ممكنة على كل حال بأن

يهديه الله ويشرح صدره للحق، ويرشده لأحكام الشرع وقواعد الدين حتى يتبين له الحق فيستقيم عليه. قال الله - تعالى - : ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَشَدَّ تَنبِيئًا ﴾ (٦٦) وَإِذَا لَا تَأْتِيَنَّهُمْ مِّنْ لَّدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٦٧﴾ وَلَهَدَيْتَهُمْ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٦٨﴾ [سورة النساء، الآيات: ٦٦، ٦٧، ٦٨].

سادساً: التوبة من الزنا والقذف:

وتكون بأن يتوب إلى الله - تعالى - ويضم إلى التوبة إلى الله الإحسان إلى زوج المزني بها بالدعاء والاستغفار له، والتصدق عنه، ونحو ذلك مما يكون ذائباً إيذائه له في أهله.

وكذا القذف يكون بالندم على قذفه له والإحسان إليه، والاستغفار له، وذكر المقذوف بضد ما قذفه به.

سابعاً: التوبة من الربا:

وتكون بأخذ رأس المال والتخلص من الأرباح الربوية والانتها عن المعاملات الربوية بالكلية.

قال الله تعالى: ﴿ وَإِن تَبَتُّمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ﴾ (٢٧٩) [سورة البقرة، الآية: ٢٧٩].

ثامناً: التوبة من الظلم:

والظلم نوعان:

النوع الأول: ظلم النفس: ويكون بترك واجب أو فعل محرم، والتوبة والاستغفار يكون من ترك المأمور وفعل المحظور فإن كليهما من السيئات والخطايا والذنب فيتدارك المرء ما فاتته من واجبات فيؤديها، ويقلع عن فعل المحرم أيّاً كان، وترك الإيمان والتوحيد والفرائض التي فرضها الله على القلب والبدن من الذنوب - أيضاً -.

فعلى التائب أن يرجع إلى حقيقة التوحيد والإيمان ويؤدي الفرائض التي فاتته من صلاة وصيام وزكاة وحج ونحوها. وإذا كان فعل الإنسان إما له أو عليه فهو يستغفر الله مما عليه، وقد يظنّ ظنون سوء باطلة، وإن لم يتكلم بها فإذا تبين له فيها استغفر الله وتاب من كل ما في النفس من الأمور التي لو قالها أو فعلها عذّب.

النوع الثاني: ظلم الغير: يكون في دم أو مال أو عرض، فإنه لا بد من إيفاء الحق مادام قادراً على ذلك. فإن كان قد أخذ المال على سبيل الدين فهو مدين لصاحبه حتى يؤدي ما عليه، فإن مات فروحه مرهونة بدينه حتى يُقضى عنه، وإلا فالقضاء يوم القيامة من حسناته إن كانت له حسنات، وإلا

أخذ من سيئات غريمه فطرح عليه ثم طرح في النار .
 عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ يوماً :
 «أتدرون ما المُفْلِسُ»؟ قالوا: المُفْلِسُ فينا من لا درهم له ولا متاع ،
 قال : «إِنَّ المُفْلِسَ من يأتي يوم القيامة بصلاةٍ وصيامٍ وزكاةٍ ،
 ويأتي قد شتمَ هذا، وقذَفَ هذا، وأكلَ مالَ هذا، وسفَكَ
 دَمَ هذا، وضربَ هذا، فيُعْطَى هذا من حسناته، وهذا من
 حسناته، فإن فُيئتْ حسناتُه قبل أن يُقضى ما عليه، أُخِذَ من
 خطاياهم فطُرِحَتْ عليه، ثم يُطْرَحُ في النار»^(١) .
 وهذا مما يُحْتَمُّ على المسلم الاهتمام بأمر التوبة
 وخاصة من حقوق العباد .

ويجب على العبد أن يرجع إلى الحق ويتحراه، ويتبرأ من
 نوازع النفس وشوائب الهوى، وأن يستغفر الله ذاكراً له في
 كل حين وأن، وألا يُصر على ما فعل، ويتبجح بالمعصية في
 غير حياء، وبذا يغفر الله له ذنبه، ويجبر زلته، وينظمه في
 سلك عباده المتقين، الذين قال في شأنهم: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا
 فَعَلُوا فَجْشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ
 يَغْفِرِ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ
 يَعْلَمُونَ﴾ [سورة آل عمران، الآية: ١٣٥] .

وسائل إزالة تعلق القلب بالذنوب

ينبغي على كل ذي لبّ وفطنة أن يحذر مغبة المعاصي وعواقب الذنوب إذ أن الذنوب سموم مهلكة، ولها تأثيرات قبيحة، ومرارتها تزيد على حلاوتها أضعافاً مضاعفة، والعاقل من أعد لنفسه زاداً يتوصل به إلى ربّه، فإنه ليس بين العبد وبين الله - تعالى - قرابة ولا رحم، وإنما هو - سبحانه - قائم بالقسط حاكم بالعدل، فمع أنه غفور رحيم، لكنه ذو عذاب أليم! فالحذر الحذر!!
ومن الأسباب التي تزيل أثر تعلق القلب بالذنوب ما يأتي:

أولاً: اعلم أن الذنب إما أن يكون: بسبب الغفلة فطريق علاجه العلم.

فعلى التائب أن يسلك طريق الهداية من تعلّم العلم، وتعليمه، والدعوة إليه، والعمل به، ويعتقد أن الذنوب مُضِرَّةٌ يجب تركها، ويتذكر إنذارات القرآن الكريم ووعيده للعاصين، وما جرى للعصاة على اختلاف الأمم بسبب ذنوبهم.

وإن كان الذنب بسبب غلبة الشهوة ونوازع النفس، فطريق

علاجه الصبر واحتساب الأجر عند الله - تعالى - وما أطفأ العبدُ جمرة الغضب والشهوة بمثل الوضوء والصلاة، فليتوضأ وليصل وليعمر أوقاته بتقوى الله، ويُرَكِّي نفسه بطاعته - تعالى - ويظهرها من خبائث الأخلاق وذميم الخصال.

ثانياً: أن يعتصم بالله: فمن اعتصم به - سبحانه - ولجأ إليه في كل أحواله تولاه ونصره على عدويه اللذين لا يفارقانه أبداً، وهما النفس والشيطان الرجيم، ولم يخذله أبداً، قال - تعالى - ﴿وَمَنْ يَعْصِمْ بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [سورة آل عمران، الآية: ١٠١].

وأن يعتصم بحبل الله: وهو القرآن الكريم ويعمل بأوامره وأحكامه، ويهتدي به ويداوم على تلاوته وتدبره والاتعاظ بأخباره.

ثالثاً: أن يخاف تعجيل العقوبة في الدنيا فقد يُحرّم العبدُ الرزق بالذنب يصيبه، وكذلك يخاف الفقر والمرض إن هو أصرَّ على عصيانه.

قال ﷺ: «إن العبد ليُحرّم الرزق بالذنب يصيبه»^(١).

(١) جزء من حديث رواه الإمام أحمد في «المسند» ٥/٢٧٧، ٢٨٢ وابن ماجه (٩٠) (٤٠٢٢)، والحاكم في «المستدرک» ١/٤٩٣. وسنده ضعيف بهذه الزيادة.

وقال عليه الصلاة والسلام: «لم تظهر الفاحشة في قوم قط حتى يعلنوا بها، إلا فشا فيهم الطاعون والأوجاع التي لم تكن مضت في أسلافهم»^(١).

رابعاً: أن يطيب مطعمه ولا يأكل إلا حلالاً: فالعبادة مع أكل الحرام كالبناء على أمواج البحر، قال رسول الله ﷺ: «إن الله طيب لا يقبل إلا طيباً، وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين فقال: ﴿يَأْتِيهَا الرُّسُلُ كُلُّوْا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَأَعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ [سورة المؤمنون، الآية: ٥١]، وقال: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُلُّوْا مِنَ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ [سورة البقرة، الآية: ١٧٢]، ثم ذكر الرجل يُطيل السفر أشعث أغبر، يمد يديه إلى السماء: يارب يارب، ومطعمه حرام ومشربه حرام، وملبسه حرام، وغُدِّي بالحرام فأنى يستجاب لذلك»^(٢).

خامساً: أن يذكر العبد أنه قائم بين يدي الله غداً يحاسبه على كل أعماله، فينظر إلى لذة المعصية التي نالها قد ولَّت، والعقوبة عليها قد حلَّت، فيزجر نفسه ويخاف

(١) رواه ابن ماجه (٤٠١٩)، وفي سنده كلام، لكن له شواهد ينجز بها، وانظر لذلك: «فتح الباري» ١٠/١٩٣..

(٢) رواه مسلم (١٠١٥).

الذنوب التي عملها، ويقطع كل سبب يعده عن الله - تعالى -:

سادساً: أن يذكر سرعة لقاء ربه: فهو يتوقع في كل لحظة نزول الموت به؛ وما بعد الموت من مُسْتَعْتَبٍ. وما بعد الدنيا من دار، إلا الجنة أو النار، ويتفكر في أمر المعاد وهول المطلع، وشدة بطش الله - تعالى - وأليم عذابه. قال الله تعالى: ﴿وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [سورة مريم، الآية: ٣٩].

سابعاً: البعد عن قرناء السوء: وتخير الأصحاب واستبدالهم بجليس صالح يُذَكِّرُهُ بالله ويدله عليه، والعلماء في كل عصر مصابيح الدُّجَى، فعليه بمجالستهم، والتزود من علمهم وتوجيهاتهم، وسيجد بذلك الربح الوفير والخير الكثير. إن شاء الله. قال ﷺ: «إِنَّمَا مَثَلُ الْجَلِيسِ الصَّالِحِ وَالْجَلِيسِ السَّوِّءِ كَمَثَلِ الْمَسْكَ، وَنَافِخِ الْكَبِيرِ^(١)، فَحَامِلِ الْمَسْكَ إِمَّا أَنْ يُحْذِيكَ^(٢)، وَإِمَّا أَنْ تَبْتَاعَ مِنْهُ، وَإِمَّا أَنْ تَجِدَ مِنْهُ رِيحاً طَيِّبَةً، وَنَافِخِ الْكَبِيرِ إِمَّا أَنْ يَحْرِقَ ثِيَابَكَ، وَإِمَّا أَنْ

(١) الحداد.

(٢) يعطيك بلا ثمن، هدية.

تجد منه ريحاً خبيثة»^(١).

ثامناً: أن يستعيز بالله من شر وساوس الشيطان الرجيم:
قال الله - تعالى - : ﴿ وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْعٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ
إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ [سورة فصلت، الآية: ٣٦].

تاسعاً: الاستغفار من أكبر الحسنات: فمن أحس بتقصير
في قوله أو عمله، أو غلبه الهوى على نفسه، أو تغير حاله
في رزقٍ أو غيره، فعليه بالتوبة والاستغفار، ففيهما الشفاء
إذا كانا بصدق وإخلاص. ففي الاستغفار كل شيء، فمن
أراد الولد فعليه بالاستغفار، ومن أراد المال فعليه
بالاستغفار، ومن أراد الجنة فعليه بالاستغفار، قال الله
تعالى حكاية عن نبيه نوح وقوله لقومه: ﴿ فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا
رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيَمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ
وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا ﴿١٢﴾ [سورة نوح،
الآيات: ١٠ - ١١ - ١٢]،

عاشراً: إمساك فضول النظر والكلام والطعام: وطاعة الله
حيثما كان وأينما كان، وإتباع السيئة بالحسنة، وعدم
الإصرار على الذنب. قال تعالى: ﴿ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ

(١) رواه البخاري (٢١٠١) و(٥٥٣٤)، ومسلم (٢٦٢٨).

السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرٌ لِلذَّكِرِينَ ﴿١١٤﴾ [سورة هود، الآية: ١١٤]. وقال
ﷺ في وصيته لمعاذ: «اتق الله حيثما كنت، وأتبع السيئة
الحسنة تمحها، وخالق الناس بخلق حسن»^(١).

(١) رواه الترمذي (١٩٨٨)، ورواه الإمام أحمد في «المسند» ١٥٣/٥،
١٥٨، ١٧٧، ٢٣٦، والدارمي ٣٢٣/٢، والحاكم ٥٤/١. وهو حديث
حسن بشواهده، وقد روي من طرق عن معاذٍ وأبي ذرٍّ - رضي الله
عنهما -، وانظر لشرحه «جامع العلوم والحكم» للمحافظ ابن رجب
- رحمه الله - الحديث الثامن عشر فإنه نقيسٌ جداً.

حكم توبة العاجز عن المعصية

إذا حيل بين العاصي وبين أسباب المعصية وعجز عنها، بحيث يتعذر وقوعها منه هل تصح توبته؟
 كالسارق إذا قُطِعَ، والزاني إذا جُبَّ، وشاهد الزور إذا قُطِعَ لِسَانُهُ، وكُلُّ من وصلَ إلى حَدِّ بَطَلَتْ معه دواعيه إلى معصية كان يرتكبها.

فتوبته صحيحة^(١)، وتكون التوبة من عزمه على المعصية لو قدر عليها، ومن وساوس الشيطان له بالمعصية بأن لا يستحليها ويستعذبها، بل ينفر منها ويشمئز منها.
 وإن أخذت ورود الوسواس على قلبه بالمعصية توبة واستغفاراً كان ذلك أكمل وأتم في التوبة.

(١) وهذا ما رجحه شيخ الإسلام ابن تيمية، وقال: «توبته صحيحة عند جماهير العلماء من أهل السنة وغيرهم». انظر: «مجموع الفتاوى»

الوسائل المعينة على التوبة

التوبة فرض عين في حق كل شخص، ولا يتصور أن يستغني عنها أحد من البشر، لأنه إن خلا، عن معصية الجوارح فلا يخلو عن الهم بالذنب بالقلب، وإن خلا فلا يخلو عن وساوس الشيطان بإيراد الخواطر الصارفة عن ذكر الله - عزوجل - حتى وإن خلا منها فلا يخلو عن غفلة وقصور بالعلم بالله وبصفاته وأفعاله.

لذا فكل إنسان مفتقر إلى التوبة والرجوع عن التعويج الذي وجد إلى سنن الطريق المستقيم. ولكن ما هي الوسائل المعينة للإنسان على التوبة إلى الله؟
إنها أمور كثيرة منها:

- ١ - أن يتدارك ما فاته من العبادات، كلما أمكن ذلك.
- ٢ - أن يقبل على الله ويعمل لطلب مرضاته ويتدبر عظيم قدر مولاه، وقدر رضاه وسخطه، وما وعد به الطائعين، وتوعد به العاصين ويحاول على ذلك، حتى يستنير قلبه ويعود إلى أصله الذي فطره الله عليه.
- ٣ - البدار إلى محاسبة النفس ويكون بالتوبة عن كل

معصية توبةً نصوحاً قبل الموت، ويتدارك ما فرط من تقصير في فرائض الله - عزوجل - ورد المظالم إلى أهلها، واستحلال كل من تعرض له بلسانه ويده وسطوته بقلبه. وتذكر ما سلف من جناية نفسه عليه، ويؤمن أن في طاعتها هلاكه يوم معاده، وذُلُّه في حياته الدنيا، وأن في عصيانها نجاته في آخرته وعزه في حياته الدنيا كما قال الحسن في شأن العصاة: «إنهم وإن طقطقت بهم البغال، وهملجت بهم البراذين، إلا أن ذُلَّ المعصية لا يجاوزهم، أبى الله إلا أن يذل من عصاه!»

وقال بعض السلف: إني لأرى أثر المعصية في خلق دابتي وأهلي.

فيعزم بقلبه على تأديبها، ويواظب على توقيفها والإلحاح على معاتبها ويحاول على موعظتها وتذكيرها بربها الذي لا بد لها من المصير إليه.

٤ - عزل نفسه عن مواطن المعصية، ومفارقة قرناء السوء ومقاطعتهم، ماداموا على حالهم، واستبدالهم بصحبة أهل الخير، الذين يُذَكَّرُونَه إذا نسي ويعينونه إذا ذكر ويقومونه إذا اعوجَّ، ويقودونه إلى الحق وإلى الطريق المستقيم.

٥ - أن يصدق النية مع الله في الرجوع إليه بإصلاح العمل ظاهراً وباطناً.

٦ - أن يطهر قلبه من الإصرار - وهو عقد القلب على شهوة الذنب حتى ولو أقلع عنه - والتطهير يكون بإدمان معاتبة النفس وتخويفها وتذكيرها بإنذارات القرآن وبأخبار العصاة، وحكايات من جرت عليهم المصائب بسبب ذنوبهم، وخوف تعجيل العقوبة في الدنيا وحرمان الرزق الحسي والمعنوي بسبب المعاصي.

٧ - أن ينهي كل ذنب بنوع من التوبة، ولا يتمادى في الذنوب اتكالاً على فضل الله - تعالى - ورجاء عفوهِ، فمع أنه - سبحانه - غفورٌ رحيم لكن عذابه هو العذاب الأليم!! قال تعالى: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [سورة النور، الآية: ٦٣]، وقال تعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُمِبَهَا الَّذِينَ يُنْقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾ [سورة الأعراف، الآية: ١٥٦]، وليرجُ المؤمن العون في الهداية إلى الخير من الله، قال تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [سورة الفاتحة، الآية: ٥]، ويشعر بأن قلبه بين أصبعين من أصابع الرحمن - سبحانه وتعالى -.

٨ - أن يأخذ رأس ماله فقط إن كان قد رابى، ويتخلص مما ربحه فلا يأكله ولا يؤكله مسلماً.

٩ - إن كان الذنب من مظالم العباد، كأن يكون قد أخذ مالاً بغير طريق شرعي أو غصبه من صاحبه، فلا بد من رده إليه والخروج عنه مادام قادراً على ذلك، وإلا فيعزم على رده إذا قدر في أعجل وقت وأسرع عيناً كان أو غيره، وإن لم يعثر له على صاحب مُعَيَّنٍ أو له صاحب وأيسر من تحصيله صرفه في مصلحة للمسلمين على نيّة صاحبه، وهو بذلك مأجور - إن شاء الله تعالى -.

١٠ - أن يعمل عملاً صالحاً خالصاً لله - تعالى - موافقاً لسنة رسوله ﷺ وأن يسلك طرق الهداية من تعلم العلم وتعليمه والدعوة إليه والعمل به وأن يلزم طاعة الله - تعالى - في كل حركة وسكنة من حياته. مع حسن الظنّ به، والوثوق برحمته، وعدم القنوط من عفوّه.

قال تعالى: ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ [سورة الكهف، الآية: ١١٠].

الأسباب الصارفة عن التوبة

إن النفس البشرية تنزع إلى الطبيعة البدنية وتُغوى باللذات والشهوات الجسمية، والمعاصي تُضعف القلب عن إرادة الخير، وبذا تقوى فيه إرادة المعصية، وتضعف إرادة التوبة شيئاً فشيئاً إلى أن تنسلخ منه بالكلية، والمعاصي تزرع أمثالها، ويولد بعضها بعضاً. وماذا لك إلا لعدة أسباب منها:

أولاً: اعتماد العبد على سعة رحمة الله - تعالى - وكرمه وعفوه حتى إن بعض المذنبين من الناس إن كلمته ناصحاً أو زاجراً له عن الآثام رد عليك بأن رحمة الله واسعة، وغفرانه يسع الذنوب كلها، ونسي هذا المسكين أن الله - عز وجل - كما أنه واسع المغفرة فهو - تبارك وتعالى - شديد العقاب!! وأنه لا يرد بأسه عن القوم المجرمين، ومن اعتمد على العفو مع الإصرار على الذنب فهو كالمعانند المكابر.

ثانياً: أن الشهوة لذّة ناجزة والنزوع عن هذه اللذة العاجلة لخوف فوت الآجلة شديد على النفس.

ثالثاً: التسويف والاعتذار بالأمانى، وقد حذّر الله من ذلك في غير ما آية من كتابه الكريم، كما قال سبحانه: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا لَّهُمْكُمْ أَمْوَالِكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [سورة المنافقون، الآية: ٩].

رابعاً: الحرص على جمع المال، وصرف الجهد لتحصيله، وتركيز الفكر حوله، وانشغال القلب بموارد المال ومصادره مما قد يؤدي إلى الغفلة عن المصير المحتوم، ونسيان الاستعداد لما بعد الموت. قال ﷺ: «لو كان لابن آدم واديان من مالٍ لابتغى لهما ثالثاً، ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب، ويتوب الله على من تاب»^(١).

خامساً: الغفلة والجهل اللذان يدفعان العبد إلى الفرح بشهوته المحرمة، وهذا الفرح دليل على شدة الرغبة فيها والجهل بقدر من عصاه، والجهل بسوء عاقبتها وعظم خطرهما.

سادساً: استصغار الذنب مما يسبب عدم الخوف من الله.

(١) رواه «البخاري» (٦٠٧٢) (٦٠٧٣) في الرقاق: باب ما يتقى من فتنه المال، و«مسلم» (١٠٤٨) في الزكاة: باب لو كان لابن لآدم واديان لابتغى ثالثاً.

علامات صدق التائب

لا يعتبر مجرد التلفظ بالتوبة دليلاً على الصدق فيها، ما لم يأتِ التائب بعلامات تكون ترجمة عملية للتوبة، وبما يحقق وجودها الفعلي الذي ترجى معه المغفرة والقبول، فمن قال قد تبتُ لا يُجتزأ بقوله، حتى ينضاف إلى ذلك أفعاله المحققة للتوبة. ومن العلامات الدالة على صدق التائب:

١ - الإقلاع الفعلي عن الذنب، والأخذ في مقابله من أعمال الطاعة، وهذا دليل حساسية القلب وانتفاضه وشعوره بالإثم، ورغبته في التوبة.

٢ - العزم والقصد لتدارك ما فات، وإصلاح ما يأتي، فإن كان الماضي تفريطاً في عبادة قضاها، أو مظلمة أداها، أو خطيئة لا توجب غرامة حَزَنَ إذ تعاطاها، وهذا دليل على تعظيم الله في قلبه واشتداد خوفه منه، ورجائه إياه، وطمعه فيما عنده.

٣ - أن تضيق الأرض عليه كما ضاقت على كعب بن مالك وصاحبيه^(١)، فيستولى عليه الحزن والبكاء، فيشغله

(١) انظر قصته في «الصحيحين»: «صحيح البخاري» (٤١٥٦) كتاب =

عن اللهو والضحك .

٤ - أن يكون حاله بعد التوبة خيراً مما كان قبلها . قال تعالى : ﴿ فَلَقَّحْءَ آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَتٍ فَنَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّجِيمُ ﴾ [سورة البقرة، الآية : ٣٧] .

٥ - أن لا يأمن مكر الله طرفة عين ؛ قال تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِمْ مُّشْفِقُونَ ﴾ [٢٧] إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ ﴿ ٢٨ ﴾ [سورة المعارج، الآيتان : ٢٧ - ٢٨] ، فيصعبه الخوف طيلة حياته ، ويستمر على ذلك حتى يسمع قول الرسل لقبض روحه : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَفْتَمُوا تَنْزَلَ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشُرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ ﴾ [سورة فصلت، الآية : ٣٠] .

٦ - أن يتألم ويندم ويأسف على ما فرط منه ، وخوفاً من سوء عاقبته .

٧ - أن يذكر دائماً سرعة لقاء ربه ويتربق في كل لحظة نزول الموت به وأنه أقرب إليه من شراك نعله . قال رسول الله ﷺ : « الجنة أقرب إلى أحدكم من شراك نعله ، والنار

= المغازي : باب حديث كعب بن مالك ، « صحيح مسلم » (١٨٩٠) في التوبة باب حديث توبة كعب بن مالك وصاحبيه .

مثل ذلك»^(١).

٨ - ومن أقوى علامات صدقه في التوبة: محبة الله ورسوله ومحبة المؤمنين فيه والإتيان من العمل بما تقتضيه هذه المحبة.

(١) رواه «بخاري» (٦١٢٣) كتاب الرقاق: باب الجنة أقرب إلى أحدكم من شراك نعله والنار مثل ذلك.

التوبة العامة والخاصة

إن الإنسان قد يستحضر ذنباً أو ذنوباً معينة فيتوب منها، وقد يتوب توبة عامة ينوي بها الإقلاع عن جنس الذنوب كلها، وما يكرهه الله، والندم على ذلك والرجوع إلى الطاعة بالكلية. وتفصيل ذلك:

أولاً: إذا تاب من ذنب وهو مُصِرٌّ على آخر من نوعه، كأن يتوب من شرب الحشيشة وهو قائم على شرب الخمر، أو يتوب عن الزنا بامرأة وهو مُصِرٌّ على الزنا غيرها - مثلاً - فتوبة مَنْ هذا حاله غير صحيحة؛ لأنه لم يتب من الذنب وإنما عدل عن نوع منه إلى نوع آخر منه - أيضاً - ولا يدخل في مسمى التائب.

ثانياً: أن يتوب عن ذنب بعينه مع مباشرة آخر لا تعلق له به ولا هو من نوعه، مثل أن: يتوب عن بعض الذنوب دون بعض، كأن يتوب من قتل النفس وأكل أموال اليتامى، وهو مقيم على شرب الخمر وفعل الفاحشة، فهذه هي التوبة الخاصة، وحكمها أنها تصح فيما تاب منه، شريطة أن يكون المتروك ليس شرطاً في صحة المفعول، كالإيمان

المشروط في غيره من الأعمال، كما قال الله - تعالى -: ﴿ وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا ﴾ [سورة الإسراء، الآية: ١٩].

أما ما لم يتب منه فهو باقٍ عليه حتى يتوب منه .

إذن: فكل ذنب له توبة تخصه، وهي فرض منه لا تتعلق بالتوبة من الآخر، كما لا يتعلق أحد الذنبيين بالآخر - فلو أتى مثلاً: بفرض وترك فرضاً آخر؛ استحق العقوبة على ما تركه وأُثيب على ما فعله، ولا يكون ما ترك موجباً لبطلان ما فعل . كمن أتى بالصلاة والزكاة وترك الصوم أو الحج - مثلاً - .

ثالثاً: أن ينتهي عن جميع الذنوب فينشيء توبة تستغرق كل ما رآه ذنباً فهذه هي التوبة العامة التي لم تُبق ذنباً، إلا تناولته، فمن هذه حاله غُفرت ذنوبُهُ كلها شريطة أن يلتزم بعد التوبة بفعل ما أمر الله به وترك ما نهى عنه، ويندم على ما فرط في أي أمر أو ترك صغيراً كان أو كبيراً، ويحقق بقية شروط التوبة .

التوبة التامة

إذا كانت التوبة واجبة على كل مُكَلَّف فإنه لابد وأن تكون كاملة تَعَمُّ جميع الذنوب وتستغفرها، بحيث لا تدع ذنباً إلا تناولته، ولا معصية إلا محت أثرها من القلب، كما يمحو ضوء النهار ظلام الليل.

توبة يجمع العبد فيها كل عزمه وإرادته، مبادراً بها عازماً على الماضي فيها إلى آخر عمره، مُقلعاً عن الذنب وهو يحدث نفسه ألا يعود إليه، كما لا يعود اللبن إلى الضرع.

توبة تبدأ بالندم، وتنتهي بالعمل الصالح والطاعة. وتظل تذكر القلب بعدها وتُخَلِّصه من رواسب المعاصي وعكارها، وتحضه على ألا يعود إلى الذنب أبداً، وأن تكون لله، لا حفظاً للصحة أو المال، أو حرصاً على حظ من متاع الدنيا، أو خوفاً من عقاب أحد، أو سطوة قانون، أو عدم وجود ما يعينه على المعصية، لكنه يهجر الذنب، لأنه يُغضب الله ورسوله.

وأن تستغرق الذنوب كلها، فلا تصح من ذنب أصر على مثله؛ لأن قبول الله لأعمال البر من عبدٍ مقيم على

المعصية غير محقق، والنفس المشوقة بلذة المعصية قلماً تخلص عمل الخير، والقلب الملوث بالشهوات يستحيل أن يخلص العمل الصالح إذا كثر عليه الرآن، من تتابع الذنوب وتشبعه بها، والعبد مطالب بترك الشر كُلِّه، وتركه الشر يدفعه إلى عمل الخير من تلقاء نفسه. فإذا تاب العبد من الكذب، فلا يصح أن يقيم على الزنا أو الكبِّر مثلاً، بل عليه إذا تاب من هذه الخصلة أن ينجرَّ إلى غيرها، حتى يقتلع جميع الجذور الشريفة من قلبه.

* ثم اعلم - أرشدني الله وإياك إلى الخير - أن على كل عضو من أعضاء الإنسان توبة: فتوبة العين كفها عن النظر إلى المحارم، وتوبة اليد كفها عن تناول المحرم، وتوبة السمع كفها عن سماع المحرم، وتوبة الفرج كفها عن الزنا وهكذا.

وأن يستدرك العبد ما فاته؛ فيؤدي كل فرض ضيعه ويرد إلى كل ذي حقَّ حقَّه من المظالم، ويشغل البدن الذي استعمله في السُّحت والحرام بطاعة الله - تعالى - وامثال أوامره والتغذي بالحلال، والبُعْد عن مواطن الشبهات والحرام.

اللهم إنا نسألك توبةً صادقةً وإنابةً كاملةً وعملاً صالحاً مقبلاً يا ربَّ العالمين.

ما ينقض التوبة

تَقَدَّم أن التوبة مقام ينبغي أن يستصعبه العبد، من أول ما يدخل فيه إلى آخر حياته، فإذا كان التائب قد جمع همه وقصده وتاب توبةً نصوحاً، فعليه ألا يرجع إلى الذنب كما لا يعود اللبِن إلى الضرع، فإن رجع إلى المعصية وعاود الذنب فقد نقض توبته، إذ أن صحة التوبة حينئذٍ مشروط باستمرارها، فإذا تاب العبد من ذنبٍ معين ثم عاود فعله فإنه حينئذٍ يُعَدُّ ناقضاً لتوبته، بسبب معاودته ذلك الذنب.

ولكن إذا تاب العبد من الذنب ثم عاوده، فهل يعود إليه إثم ذلك الذنب الذي قد تاب منه ثم عاوده؟

بحيث يستحق العقوبة على الأول والآخر؟

وإن مات مُصِراً، أو أن ذلك قد بطل بالكلية، فلا يعود

إليه إثم، وإنما يعاقب على هذا الأخير!!

* قلتُ: الصحيح أنه لا يعود إليه إثم الذنب الذي قد

تاب منه بنقض التوبة، لأنه قد ارتفع بالتوبة، وصار بمنزلة من لم يعمله، وكأنه لم يكن فلا يعود إليه إثم بعد ذلك، والعائد إثم عليه هو: المستأنفُ لا الماضي، ولأن التوبة

المتقدمة حسنة، ومعاودة الذنب سيئة، فلا تبطل معاودة
الذنب هذه الحسنة، كما لا تبطل السيئة الأخيرة ما قارنها
من الحسنات.

وللعلماء في هذه المسألة بحث أجمله في المسألة
التالية.

هل العودة إلى الذنب مفسدٌ للتوبة منه؟

بمعنى أن الشخص إذا تاب من ذنب ثم عاد إليه هل يعود إثم هذا الذنب عليه لأنه رجع إليه؟

تفصيل هذه المسألة على النحو التالي:

١ - إذا تاب واستمر على توبته، وكانت التوبة مستوفية للشروط، خالية من الموانع، فهذه توبة صحيحة، لا خلاف فيها، بإجماع العلماء.

٢ - أن يتوب من الذنب، ثم يعود إليه، ثم يتوب منه، ثم يعود إليه. فإذا كانت كل توبة مستوفية شروطها، فإن كل توبة صحيحة.

٣ - أن يتوب من الذنب، ثم يعود إليه، ويموت على ذلك، فهل يؤخذ بالأول والثاني، أم يؤخذ بالثاني، وأما الأول فقد جَبَّته التوبة، ورُفِعَ عنه الإثم؟

في ذلك قولان لأهل العلم:

الأول: أنه يؤخذ بالأول والثاني، وتكون معاودته الذنب مرة أخرى ناقضة للتوبة السابقة. وذلك لأن التوبة مشروطة باستمرارها والموافاة عليها وهذا لم يستمر عليها. ولقوله

تعالى: ﴿وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [سورة آل عمران، الآية: ١٠٢]. وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ - فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [سورة البقرة، الآية: ٢١٧].

الثاني: أنه لا يؤخذ إلا بالثاني، وأما الأول فقد مَحَتْ أثره التوبة، وصار بمنزلة ما لم يعمله، ويدل لذلك ما رواه البخاري ومسلم عن أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «أذنب عبداً ذنباً فقال: اللهم اغفر لي ذنبي، فقال تبارك وتعالى: أذنب عبدي، فعلم أن له رباً يغفر الذنب ويأخذ بالذنب، ثم عاد فأذنب فقال: أي رب اغفر لي ذنبي فقال تبارك وتعالى: عبدي أذنب ذنباً فعلم أن له رباً يغفر الذنب ويأخذ بالذنب، ثم عاد فأذنب، فقال: أي رب اغفر لي ذنبي، فقال تبارك وتعالى: أذنب عبدي ذنباً فعلم أنه له رباً يغفر الذنب ويأخذ بالذنب، اعمل ما شئت فقد غفرت لك»^(١). وهو الموافق لسماحة دين الإسلام لما فيه من الترغيب للتائبين والمقبلين على الاستقامة.

(١) تقدم ذكره وتخريجه (ص ٢٣).

قال الله تعالى: ﴿ قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ ﴾ [سورة الأنفال، الآية: ٣٨].

والقول الثاني هو الراجح، وما ورد من أدلة للقول الأول فإنه محمولٌ على الموافاة بالكفر والموت عليه.

طبقات التائبين

تختلف طبقات التائبين ورتبهم تبعاً لاختلاف أحوالهم وتباينهم في أعمالهم، واصطحابهم التوبة إلى آخر العمر، واستقامتهم عليها، وهناك أربع مراتب للتائبين:

المرتبة الأولى: وهم الذين يستقيمون على التوبة إلى آخر لحظة في حياتهم، ولم تحدثهم أنفسهم بالعودة إلى الذنب، أو مقارفة الإثم، وهؤلاء هم أصحاب النفوس المطمئنة، الذين اتصفوا بأعلى رتب التوبة، لأنهم سلكوا الطريق المستقيم، فلزموا طاعة الله، بالإتيان بما به أمر، واجتناب ما عنه نهى وزجر، وتخلوا عن كل معصية وخُلِقَ لا يرضى عنه رب العزة والجلال. وهذه أعلى رتب التائبين.

المرتبة الثانية: وهم الذين سلكوا طريق الاستقامة ولازموا التوبة طيلة حياتهم، إلا أنهم لا ينفكون عن ذنوب تعثرهم، أو سيئات تزينها لهم أنفسهم، لا عن قصدٍ وعمدٍ، بل كلما أقدموا على الذنوب لاموا أنفسهم،

وجددوا عزمهم وندموا على الشر، لِمَ فعلوه! وندموا على الخير، لِمَ لَمْ يستكثروا منه! وهذه رتبة عالية، وإن كانت دون الأولى، وهي أغلب أحوال التائبين.

المرتبة الثالثة: وهم الذين يستمرون على التوبة مدة من الزمن ثم ينزعون إلى المعاصي وتغلبهم الشهوات، فيخلطون عملاً صالحاً وآخر سيئاً، ومع ذلك تؤنبهم أنفسهم على ما فرطوا، ويندمون على ما فعلوا، ويجدون في قهر أنفسهم، لكنما يغريهم التسوية في التوبة وطول الأمل، وهؤلاء على جانب عظيم من الخطورة، لاحتمال أن يوافيهم الأجل فيموتوا قبل أن يتوبوا، فيندموا ولات ساعة مندم.

المرتبة الرابعة: وهم الذين استقاموا على التوبة مدة ثم مالت أنفسهم الأمانة بالسوء إلى الطبيعة البدنية، وأغوتهم بالشهوات الحسية، فواقعوا الذنوب دون أن يُحدِّثوا أنفسهم بالتوبة، وهؤلاء يخشى عليهم سوء الخاتمة، إن هم تبعوا هوى أنفسهم، وانقادوا لها غافلين عن المصير المحتوم. . . فالعاقل حسن الحظ من قمع نفسه عن غيرها، وردها إلى طاعة ربها، ورجع إلى الصراط السوي، واهتدى بنور الكتاب المبين، وهُدِّي سيد المرسلين ﷺ.

ربنا آت أنفسنا تقواها، وزكها أنت خير من زكاها، أنت
وليها ومولاها، ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا
لنكونن من الخاسرين.

ربنا اغفر وارحم، وتجاوز عما أنت به أعلم، إنك أنت
الأعز الأكرم، وأنت أعلم وغيرك لا يعلم، وصلى الله على
نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

د. صالح بن غانم السدلان

أستاذ مساعد بكلية الشريعة بالرياض
جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية
الرياض في ١٧/٨/١٤٠٦هـ

ثبت المراجع

- ١ - الآداب الشرعية والمنح المرعية، لشمس الدين أبي عبدالله محمد بن مفلح المقدسي الحنبلي، توزيع الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد بالسعودية ١٩٧٧م.
- ٢ - أثر الذنوب في هدم الأمم والشعوب، لمحمد محمود الصواف، مؤسسة الرسالة - لبنان ط: الرابعة ١٤٠٥هـ.
- ٣ - إحياء علوم الدين، لأبي حامد ابن محمد الغزالي، ط: مصطفى البابي الحلبي - القاهرة ١٣٥٨هـ.
- ٤ - بهجة الناظرين فيما يصلح الدنيا والدين، لعبدالله جار الله بن إبراهيم الجار الله، ط: الأولى ١٤٠٤هـ - مطابع دار الثقافة العربية بالرياض.
- ٥ - التعريفات لعلي بن محمد الشريف الجرجاني، ط: لبنان - بيروت ١٩٧٨م.
- ٦ - تفسير القرآن العظيم، للحافظ عماد الدين إسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي المتوفي ٧٧٤هـ، ط: عيسى البابي الحلبي وشركاه بمصر.
- ٧ - التوبة، لشيخ الإسلام ابن تيمية، ط دار ابن حزم، بيروت .
- ٨ - التوبة، للحارث بن أسد المحاسبي ٢٤٣هـ تحقيق: عبدالقادر أحمد عطا، ط: الأولى ١٣٩٧هـ - دار الاعتصام، دار العلوم للطباعة القاهرة.
- ٩ - الجامع لأحكام القرآن لأبي عبدالله ابن محمد الأنصاري القرطبي، دار الكاتب العربي.
- ١٠ - زاد المسير في علم التفسير، لأبي الفرج جمال الدين عبدالرحمن بن علي بن محمد الجوزي القرشي البغدادي، المكتب الإسلامي بيروت - لبنان - ط: الأولى ١٣٨٤هـ.
- ١١ - الصحاح «تاج اللغة وصحاح العربية»، لإسماعيل بن حماد الجوهري، تحقيق: أحمد عبدالغفور عطار، ط: دار العلم للملايين، بيروت - لبنان - الثانية ١٣٩٩هـ.

التوبة إلى الله

- ١٢ - صيد الخاطر، لأبي الفرج عبدالرحمن بن الجوزي، تحقيق: محمد عبدالرحمن عوض، دار الكتاب العربي - لبنان - ط: الأولى ١٤٠٥هـ.
- ١٣ - غذاء الألباب شرح منظومة الآداب، لمحمد السفاريني الحنبلي، مكتبة الرياض الحديثة - دار الاتحاد العربي للطباعة الإيداع بمصر ١٩٧١م.
- ١٤ - الفوائد، لشمس الدين محمد بن أبي بكر المعروف بابن القيم الجوزية ق ٧٥١هـ، دار مصر للطباعة.
- ١٥ - الفواكه العديدة في المسائل المفيدة، لأحمد بن محمد المنقور التميمي النجدي، ط: الثانية - دار الآفاق - لبنان ١٣٩٩هـ.
- ١٦ - في ظلال القرآن الكريم، لسيد قطب، ط: الثانية - عيسى البابي الحلبي بمصر.
- ١٧ - قاموس القرآن، للحسين بن محمد الدامغاني الحنفي، تحقيق: عبدالعزيز سيد الأهل، دار العلم للملايين، بيروت لبنان ط: الثانية ١٩٧٧م.
- ١٨ - كشاف اصطلاحات الفنون، لمحمد بن علي الفاروق التهانوي، تحقيق: لطفي عبدالديع، عبدالمنعم حسنين، مراجعة الدكتور أمين الخولي، مكتبة النهضة المصرية بمصر.
- ١٩ - مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية، لأحمد بن عبدالحليم بن تيمية، جمع وترتيب عبدالرحمن بن القاسم العاصمي النجدي، الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد السعودية.
- ٢٠ - مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، لشيخ الإسلام ابن قيم الجوزية، ط: السنة المحمدية بمصر ١٣٧٥هـ.
- ٢١ - مرشد الدعاة إلى الله، لأحمد بن محمد طاحون، المطبعة العربية بجدة ١٤٠٢هـ.
- ٢٢ - معجم مقاييس اللغة، لأبي الحسين أحمد بن فارس بن زكريا، مكتبة الخانجي بالقاهرة ط: الثانية ١٤٠٢هـ.
- ٢٣ - المفردات في غريب القرآن، لأبي القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهاني، تحقيق: محمد سيد كيلاني، ط: دار المعرفة - لبنان.
- ٢٤ - الهداية لأسباب السعادة، لعبدالله بن جار الله إبراهيم الجار الله، ط: الأولى ١٤٠٤هـ مطابع الإشعاع بجدة.

تعريف بالمؤلف

- * هو أبو غانم صالح بن غانم عبد الله السدلان.
- * وُلد في مدينة بريدة بالقصيم عام ١٣٦٢ هـ.
- * بدأ حياته العلمية بحفظ القرآن الكريم على يد والده الذي يعتبر أول مشايخه حيث قرأ عليه في العقيدة والفرائض والحديث والنحو، ثم التحق بمدرسة تحفيظ القرآن الكريم بالرياض.
- * ثم التحق بالمعاهد العلمية المتوسطة والثانوية بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض وتخرج فيها عام ١٣٨١ هـ.
- * وفي عام ١٣٨٦ هـ حصل على ليسانس في الشريعة من جامعة الإمام، وفي نفس العام بدأ حياته العملية بالتدريس بوزارة المعارف ثم حصل في عام ١٣٩١ هـ على الماجستير في الفقه المقارن، وكان موضوع الرسالة «الشروط في النكاح».
- * وفي عام ١٣٩٥ هـ عين محاضراً بكلية الشريعة، وحصل على الدكتوراة في الفقه المقارن من المعهد العالي للقضاء بالرياض عام ١٤٠٣ هـ، وكان موضع رسالته: «النية وأثرها في الأحكام الشرعية».
- * وتدرج الشيخ في كلية الشريعة منذ ذلك الوقت أستاذاً مساعداً، فأستاذاً مشاركاً، فأستاذاً بقسم الفقه ولا يزال حتى الآن.
- وقد استفاد الشيخ من كثير من العلماء الأفاضل ومن أبرز

مشايخه:

- * والده الشيخ غانم السدلان إذ حفظ عليه القرآن وقرأ عليه الكثير من الفنون.
- * والشيخ محمد بن إبراهيم آل الشيخ حيث قرأ عليه في العقيدة والحديث والفقه، وكان قد استفاد من الشيخ محمد بن إبراهيم استفادة عظيمة حيث يصفه فيقول عنه: «كان إضافة إلى علميته القوية مهيباً ذا أسلوب تربوي فعال، مما جعل معظم علماء البلاد يستفيدون منه وتخرجوا على يديه رحمه الله رحمة واسعة».
- * وسماحة الشيخ عبدالعزيز بن عبدالله بن باز حيث قرأ عليه في العقيدة والفقه، وذلك في دروسه في المسجد وفي المعهد العالي للقضاء.
- * والشيخ محمد الأمين الشنقيطي رحمه الله، إذ استفاد منه في الأصول والتفسير.
- * والشيخ عبدالرزاق عفيفي، حيث قرأ عليه في التفسير والحديث والأصول، وكان معجباً بطريقة الشيخ عبدالرزاق عفيفي في التدريس، حيث المادة العلمية لديه خالية من الحشو مرتبة مركزة معروضة بأسلوب شيق قشيب.
- * والشيخ مناع القطان، حيث استفاد منه في الدراسات الجامعية، فدرس عليه التفسير وأصوله، وكان ذا أسلوب شيق جذاب.
- * وكذلك الشيخ عبدالعزيز بن محمد بن داود، والشيخ عبدالعزيز زاحم، والشيخ صالح بن فوزان الفوزان، والشيخ ناصر الطريم،

والشيخ عبدالله بن جبرين، والشيخ محمد بن عبدالرحمن بن قاسم... وغيرهم كثير.

وللشيخ إنتاج علمي يتمثل في أكثر من عشرين كتاباً مطبوعاً من أهمها:

- * النية وأثرها في الأحكام الشرعية.
- * المسجد ودوره في التربية والتوجيه.
- * الشوز أسبابه وطرق علاجه في ضوء الكتاب والسنة.
- * ذكر وتذكير.
- * التوبة إلى الله.
- * صلاة الجماعة وأحكامها وما يقع فيها من بدع وأخطاء.
- * القرائن ودورها في الإثبات في الشريعة الإسلامية.
- * المخدرات.
- * أحكام الوقف والوصية.
- * الرهص والوقص لمستحل الرقص [تحقيق].
- * الائتلاف والاختلاف.
- * الأحكام الفقهية للصدقات ووليمة العرس.
- * الإيضاح في الشروط في النكاح.
- * وجوب تطبيق الشريعة الإسلامية.
- * الحكم بغير ما أنزل الله بواعثه وأسبابه وحكمه.
- * أسس الحكم في الشريعة الإسلامية.
- * زكاة الأسهم والسندات والأوراق المالية.
- * له مباحث ومقالات ودراسات أخرى متنوعة في بعض

- المطبوعات .
- * شارك في كثير من المؤتمرات العلمية الإسلامية في الداخل والخارج .
- * ساهم في أعمال عديدة في جهات مختلفة بجانب عمله في الجامعة .
- * ساهم في تقديم الأعمال الاستشارية لهيئات عدة في داخل المملكة وخارجها .

فهرست الموضوعات

الموضوع	الصفحة
مقدمة الطبعة الرابعة	٥
المقدمة	٧
تعريف التوبة	١٠
حقيقة التوبة	١١
من معاني التوبة في القرآن الكريم	١٣
فضل التوبة إلى الله	١٤
وجوب التوبة على الفور	١٨
تأخير التوبة ذنب تجب التوبة منه	٢٠
شروط التوبة	٢١
وقت التوبة ونهاية وقتها	٢٦
إمكان التوبة من جميع الذنوب	٣١
التوبة من ترك الحسنات	٣٥
الذنوب والمعاصي التي تجب التوبة منها	٣٨
وسائل إزالة تعلق القلب بالذنب	٤٥
حكم توبة العاجز عن المعصية	٥١
الوسائل المعينة على التوبة	٥٢

- ٥٦ الأسباب الصارفة عن التوبة
- ٥٨ علامات صدق التائب
- ٦١ التوبة العامة والخاصة
- ٦٣ التوبة التامة
- ٦٥ ما ينقض التوبة
- ٦٧ هل العود إلى الذنب مفسد للتوبة منه؟
- ٧٠ طبقات التائبين
- ٧٣ ثبت المراجع
- ٧٥ تعريف بالمؤلف
- ٧٩ فهرس الموضوعات